عبد الحميد الديب

شاعر البؤس والحرمان

يختلف الشعور بالمعاناة من شاعر إلى آخر.. وتتعدد أسباب هذه المعاناة وتتراوح بين الأسباب الخاصة بالشاعر نفسه وحياته القاسية.. والأسباب العامة التى تتعلق بالمجتمع وعدم تلبيته لرغبة الشاعر.

وحياة الإنسان أيضا تتراوح بين قطبي السعادة والشقاء.. ويبدو أن صدق الشاعر مع نفسه ينعكس على إبداعه.. ويعتقد كثيرون أن المعاناة وقسوة الحياة والعجز عن تحقيق حلم الشاعر.. كل هذا يجعل منه شاعراً حزيناً.. عاشقاً للشجن والشكوى.. ويرون أن مثل هذا الشاعر قد يكون أفضل وأصدق من شاعر لا يعانى قسوة الحياة

لكن هذا الأمر ليس صحيحاً دائما.. فالتاريخ الأدبي يحكى عن شعراء عاشوا فى الترف والثراء.. وكانوا صادقين فى أشعارهم بل ربما نالوا شهرة أكثر من هؤلاء الذين عانوا قسوة الحياة ومنهم على سبيل المثال: امرؤ القيس.. والمتنبي.. وأحمد شوقي وغيرهم..

والشاعر القديم كانت له طرقه وأساليبه للخروج من محنة الفقر أو الجوع أو التشرد.. فيكفيه أن يمدح حاكماً.. أو شريفاً وينال منه جائزة تعينه على الحياة.. أو يرصد له راتباً شهرياً يخرجه من محنته.

أما الشاعر المعاصر فتأبى عليه كرامته ـ غالبا ـ فى التودد إلى الأثرياء أو الحكام.. وإن كان مثل هذا السلوك قد يبرره بعض الشعراء بأنه نوع من

الحب لما يقدمه هذا الحاكم أو هذا الشريف للناس من خدمات ومنافع عامة..

لكننا اليوم مع شاعر صاحب البؤس والحرمان والجوع ولم يستطع أن يجعل شعره منقذاً له من هذه المحنة إلا بالقدر اليسير.. بل لم يشفع له كونه شاعراً أصيلاً أن ينال تقديرا من السادة أو الحكام أو الأثرياء يخلصه من معاناته.

لقد ولد عبد الحميد الديب فى أسرة فقيرة بقرية (كمشيش) منوفية وذلك فى عام 1898 لأب يعمل تاجرا يبيع الماشية ولحومها فى المواسم والأعياد.

ألحقه أبوه بكتاب القرية وكان سريع الحفظ للقرآن الكريم ثم يدفعه إلى الأزهر.. لكن الفتى يتركه إلى دار العلوم لأنه كان يميل إلى دراسة اللغة والأدب أكثر من ميله للدراسات الدينية.

وفى دار العلوم يتفجر الشعر على لسانه ويلمع بين الشعراء الطلاب.. ويعجب به أساتذته.

لكنه لم يطق ولم يتحمل تحصيل العلم.. فهجر الكلية.. ومل صحبة العلماء.. وظل يتأمل الحياة من حوله فوجد الأثرياء يتمتعون بحياة الرخاء والثراء.. والفقراء مثله يعانون الجوع والحرمان.. ووجد نفسه فى غرفته الضيقة الخاوية القذرة لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى القبض على الريح:

أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها

فأرجله أمضى من الصارم الهندى

تساكننى فيها الأفاعى جريئة

وفى جوها الأمراض تفتك أو تُعدى

ترانى بها كل الأثاث فمعطفى

فراش لنومى أو وقاء من البردِ

وأما وساداتى بها فجرائد

تجدد أو تبكى على حجر صلْدِ

تحملت فيها صبر أيوب والضنى

وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى

لقد كانت غرفة عفنة خالية من الأثاث.. قذرة.. تأوي الحشرات والأفاعي.

ويفتح عينيه على واقعه المؤلم.. ترى ماذا يفعل.. أخذ يمد يده إلى الأغنياء.. فلم يحظ منهم سوى بالقليل.. لم يجد أمامه إلا حياة التشرد والنوم فى المقاهي العامة.

وحينما كان يحظى بعمل.. يسبقه إليه حظه السيئ فيخرج منه إلى حياة الصعلكة والتسكع والبؤس والحرمان مرة أخرى.. يلبس رث الثياب.. ويعضه الجوع ليل نهار.

وكثيرا ما كان يهرب من قدره هذا إلى دار الكتب ويظل طوال يومه يقرأ كتب الشعر والتراث القديم.. لعله يتناسى ألامه وحرمانه.

وأحيانا أخرى يتسكع بالليل فى مقاهي العاصمة ويشرب حتى الثمالة.. ويقضي يومه نوماً فى المساجد حتى يوقظه الناس ويطردوه.. أو على حد قوله:

نهارىَ إما نومة بين مسجدِ
غراراً وإما بالطريق تسكّعُ
وأطوى عصىّ الليل فى القر ساعياً
ومن أين للأفّاق فى الكون مهجعُ
إذا أذنوا للفجر طرتُ مسرةً
إلى مسجد فيه أصلّى وأضجعُ
أصلى بوجدان المرائى وقلبه
وبئس صلاة يحتويها تصنعُ
أمر على المقهى فأسمع شامتاً
يمزق فى عرضى وآخر يشفع
وقد ساء ظنى بالعباد جميعهم
فأجمعت أمرى فى العداءِ وأجمعوا

وفى حي الزهار مضت المحنة إلى غايتها.. فقد اعتصر المخدر شبابه.. وظل يختلف إلى أصدقائه يرهقهم بالسؤال ويلاحقهم بالإلحاح.. وهم يلبون حينا.. ويعرضون عنه حينا آخر.

ويبأس الديب من عون الناس من حوله.. لكن هل تكفى موهبته لمواجهة الحياة؟

لقد أدرك أن المجتمع لا يعترف بهذه الموهبة.. وربما وجد فى التشرد والسكر ما يفرغ فيهما همومه وآلامه.

يقولون لى: كيف الشقاء مع الحجا

وفى شعرك الهامى عِذَابُ المناهلِ

فقلتُ بهذا الشعر بؤسى وشقوتى

كما قتل الصداحَ زهوُ الخمائلِ

فلا تسألونى عن دمائي وسفكها

سلوا بدمى الغالى جريمة قاتلِ

ولم يكن عجيباً أن يكون الديب صيداً ثميناً لرجال الشرطة حيث قبض عليه بتهمة السكر والتسكع.. فزج به فى السجن مع الدهماء المجرمين.

وهناك فى السجن تناقضت مشاعره.. وهو الشاعر الكبير الأصيل الذى صار أحد مجرمي السجون.. لكنه هون على نفسه وهو الذى لا يجد مكاناً يأويه.. فها هو الآن فى بيت جديد.. ولعله لا يجد فرقاً بين ما حرمه منه المجتمع.. وبين ما دفعت به العدالة.. فقد وجد فى سجنه المأوى والطعام والكساء.

أترى كان الشاعر يحس أنه فى عالم الحرية بعيداً عن سجن المجتمع وتشرده فى طرقاته.

يحكى الديب هذه التجربة إلى صديقه د. عبد الرحمن عثمان.. وكيف أنه استطاع أن يعرف الطريق إلى قلب (سعادة مأمور السجن) وقد كان رجلاً رقيق الحس.. يحب الأدب ويحنو على الأدباء.. فتوقفت بينهما عرى الصداقة والألفة فنال الشاعر من عطفه الشئ الكثير.

وقد سمح المأمور للشاعر بالقلم والورق ليكتب ويعبر عن مشاعره كيف يشاء.. وها هو يعبر عن حالة السجن والسجناء بقوله:

لـــه بفـــؤادى لـــذةٌ ووجـــيبُ
وفيـــه لقلبـــي بلـــسمٌ وطـــبيبُ
مـــلأت بـــه الـــدنيا هـــوى وصـــبابةً
وهَلْهلْتُ فيـــه الحـــب وهـــو جَنيـــبُ
وما صدّ عنـى أو نـوى دون حـاجتى
ولكـــن أخـــلاق الجميـــل غـــريبُ
تهدهـــده كالطفـــل إن أنَّ أوشـــكا
ويُغرى بـه الأشـجانَ وهـــو طـروبُ
وإخوان سجنٍ قَبَّحت من وجـوههم
همـــومٌ توَالـــى دائـــماً وخطـــوبُ
فمنظرهـــم أضحوكـــة للباســـهم
ومخبرهـــم فـــى الحـــادثات رهيـــبُ

لقد كنت فيهم (يوسف) السجن صالحاً

أفسّر أحلاماً لهم وأصيبُ

وكم ليلة فى السجن بين صباحها

وبين دجاها مشرق وغروبُ

وكل ضياء فى الغيابة خادعٌ

ففجر الأماني للسجين كذوبُ

ومرة أخرى يتمثل قول سيدنا يوسف (السجن أحب إلي) بعد أن استقر مقامه فيه فيقول:

لذتُ بالسجن بقلب بهِجِ

مرحبا بالضيق دون الفرجِ

ها هنا دارى وأهلى وهما

كل ما أرجو ليوم الحرجِ

ولج السجن برئٌ طاهرٌ

وأخو زلاتِه لم يَلِجِ

هكذا الدنيا رأينا ليلتها

فى صباح واضحٍ منبلجِ

رب لا نشكو.. فكم من محنٍ

لم نجد فى كربِها من فرجِ

قـــد فضـــضنا ســـترها فانكـــشف

مـــن يـــرح فى هجـــرة الهـــم يـــجِ

وكانت فترة السجن حافلة بالقصائد التى تـصف وتـسقط عـلى الواقـع الخارجي من وجدان الشاعر..

وقد كان من بين السجناء.. سجين أعمى.. قد ضاق بالسجن.. وتمـرد على السجان.. فأذاقه مر العذاب والتنكيل.. فقال الديب معبراً عـن ذلـك الموقف:

سـجنوا عليـك الكـون أم سـجنوكا

لـو أنـصفوا فـى ظلمهـم قتلوكـا

تخـذوا عـذابك أو نعيمـك شـــهوة

وتقاســـموك كـــأنهم خـــلقوكا

نـم يـا ضريـرُ ففـي عـماك سـعادة

ألاَّ تـــرى عينـــاك مـــن ظلموكـــا

ألا تـــرى أثـــر الطغـــاة وجـــورهم

عرضـــا ذبيحـــاً .. أو دمـــاً مـــسفوكا

صـادوك فاتخذوك لـعـــبة ملـجـــأ

كـــم عـــذبوك بـــه وكـــم ضربوكـــا

لم يرحمـــوك عـــلى عـــماك كـــأنهم

حسبوا العـذاب عـلى العمـى يهنيكـا

فى (الغـرب) كـل اللاجئـين تخـالهم

بـــين النعيـــم المـــستقر مـــلوكا

وهـــمُ بمـــصر معذبـــون أذلـــةٌ

ملكـوا مـن الـــرق المهـين صـكوكا

ويخرج الديب من السجن مرة أخرى إلى حياة التشرد..

فلما اشتدت عليه العلة.. حنا عليه بعض الأخيار من محبيـه فحملـوه إلى منفى آخر وهو (مستشفى الأمراض العقلية) بدعوى أنه مريض.. ليعـالج هناك علاجاً يبغض إليه (الكوكايين) ويعيد إليه الحياة من جديد.. وفى هذا المستشفى (المارستان) بالخانكة.. يقول:

رعـــاك الله (مارســـتان) مـــصر

فإنـــك دار عـــقلٍ لا جنـــونِ

حويـــت الـــصابرين عـــلى البلايـــا

ومـــن نزلـــوا عـــلى حكـــم الـــسنين

ومـــن هبطـــوا بهـــم مـــن صرح عـــزٍ

إلـــى أغـــلالِ إذلال وهـــونِ

تراهـــم خـــائفين فـــإن أثـــيروا

بمهـــــزلة فآســـــادُ العـــــرين

وإن ســـئلوا عـــن الأسرار كـــانوا

كمـــن أخـــذوا عـــن الـــروح الأمـــينِ

وكـــم فى مـــصر مـــن غـــرّ غبـــىّ

تمتـــــع بالجمـــــيل وبالثمـــــينِ

ولـــو عـــدلوا لأمـــسى (خانكيـــا)

يعـــــذب بالـــــشمال وبـــــاليمين

لقـد كانـت مـصر قبـل ثـورة 1952 يخـيم عليـه الفـساد والظلـم والاستغلال.. ولم يصمت الـديب أمـام هـذه الأوضـاع.. بـل كـان قلمـه الساخر يوجه صرخاته إلى الحكام والفاسدين.. ويدعو الشباب إلى التمـرد والعصيان.. فيقول:

لا ضـــارب منكـــم ولا مـــضروب

أنتـــم جـــميعاً معـــشر مـــغلوبُ

وإذا العـصى غـدت سـلاح حكومـة

فمـــن الأعابـــد شـــعبها المنكـــوب

ثم يخاطب الحكام بقوله:

لـــستم لنـــا الأكفـــاء أنـــتم عـــصبةٌ

مـــا فى جهـــادكم لمـــصر نـــصيبُ

حــتما ســـيأخذكم عــلى أعنــاقكم

يـــوم بأخـــذ الظــالمين رهيــبُ

يــوم الـــشباب الطــامحين وإنـــه

كغــد.. لمــن يرجــو ســناه قريــبُ

وقد كتب هذه القصيدة عام 1938 ساخطا على سـوء الحكـم والفـساد السياسي الذى كان سائدا فى مصر آنذاك..

ولم يسلم الإنجليز من لسانه كذلك بل وجه إليهم خطابه قائلا:

سجنتم بـلاد النيـل لـن نلـق منجـداً

يقيهـا مــن البأسـاءِ واليـوم تطلـقُ

لـئن خلـتمُ عمــق الـسياسة نافعـاً

فـإن قـوى الإيـمان بـالحرب أعمـق

وإن نلتـــمُ بالكتــب عهــداً وموثقــاً

فــإن عهــودَ الــسيف أوفى وأصــدقُ

ولم يترك الديب شيئا فى المجتمع لم يعبر عنه.. عبر عن فقر الفلاح وعـن مأساة فلسطين وعن الشباب يدعوه إلى الثورة.. وعـن فـضائح التمـوين.. وعن الخونة.. وعن مفهوم الوطنية.. وكان فى كل ذلـك صـادقاً مـع نفـسه ومع قارئه.

ويصاب عبد الحميد الديب بالمرض ويموت وحيدا فى فراشـه فى أحـد أيام عام 1943 لتطوي صفحة من صـفحات الـشعر الـذى عـاش وسـط المحن والأشواك والحرمان والسجن.